مســـاهمة القادرية في تأطير الثورات الشعبية

د.إبراهيم مياسي

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

جامعة الجزائر.

الملخص:

عرفـــت الجزائـــر انتشـــار الطرائق الصوفية ابتداء من القرن السادس عشر ميلادي، واســـتطاعت المحافظـــة على وجودها وعلى الروح الدينية والمقاومات العربية بما لها من إلهـــام روحي وولاء شعبي. وساهمت الطريقة القادرية مثل باقي بعض الطرائق في تأطير الـــثورات الشعبية والمقاومات المختلفة، انطلاقا من جهاد الأمير عبد القادر، مرورا بأولاد ســـيدي الشـــيخ وبوعمامة إلى مقاومة الزاوية القادرية بوادي سوف تحت زعامة الشيخ الهاشمي الشريف.

Resume:

L'Algerie a connu le Soufisme depuis le 16e siecle ,ensuite les Confreries religieuse sont propagees sur toutes les regions de l'Algérie. Pendant la colonisation française de l'Algerie, certaine confrerie a levé le fanion pour lutter contre l'occupant, notament lq confrerie El Khadiria,sous le guide de l' Emir Abdekader,en passant par cheikh Bouamama,et la Zaouia de Khadiria d'ouad-Souf et son chef El-Hachmi Cherif.

تقديم:

شـــاعت بالجزائـــر الطـــرائق الصـــوفية بشكل واضح منذ القرن السادس عشر مـــيلادي، ثم أخذت تنمو تدريجيا وتنتشر على نطاق واسع في النصف الأول من القرن الثامن عشر ميلادي .وقد تمكنت الثقافة الطرائقية الصوفية من المحافظة على وجودها بمـــا لهـــا مـــن إلهام روحي وولاء شعـــبي سمحا لها بـــأن تحافظ على الروح الدينية والمقومات العربية.

وقـــد كان ــ ومايزال ــ تشبث النّاس بالطرائق الصوفية، لاقتناعهم بأن التصوف مؤسســـة علـــى الكتاب والسنّة، قائم على سلوك الأنبياء والأصفياء، ويقال : "التصوف مبنـــي علـــى ثمـــان خصـــال: السخاء، والرضا، والصبر، والإشارة، والغربة، ولبس الصـــوف، والسياحة، والفقر." لهذا فإن التصوف طريقة سلوكية قوامها التقشف والزهد والتخلـــي عـــن الرذائل والتحلي بالفضائل لتزكو النفس وتسمو الروح، وفي هذه الحالة يشـــعر المـــرء بأنـــه علـــى اتصال دائم بالإله الأعلى؛ ولذلك تتفق معظم الآراء حول التصوف على أنّه :" نزعة روحية تنأى بالإنسان عن العالم المادي وترتفع به إلى العالم الخارجـــي"، ويقـــول ابـــن خلدون عن أصل التصوف :" وأصلها العكوف على العبادة والانقطـــاع إلى الله تعالي والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها،والزهد فيها، مما يقبل عليه الجمهور من لـــذّة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق في الخلوة للعباد".[1]

فالتصـــوف إذن، عند ابن خلدون وغيره، عبادة ومجاهدة للنفس، ومحاولة لإدراك الحقيقة أي أن غاية المتصوف هو التوحيد والمعرفة.أما رجال الطرقية أنفسهم فيختلفون حـــول تعريف التصوف حسب الوسائل التي يستعملونها للوصول إلى هدفهم، إن البعض يـــــراه فـــي الممارســـات والوســـائل التي توصل إلى الحقيقة، وهي ممارسة التطهر والتقشـــف والقـــيام بالواجـــبات الشرعية على أتـــمّ وجه، والتحلي بالأخلاق والفضائل، وتجنب كل الشبه والمزالق، بينما يـــراه آخرون منهم في الوصول إلى الإلهام، والكشف والـــرؤى والســـرحان في عوالم الأســـرار الغامضة، ولكن النتيجة واحدة تقريبا، فهي التسامي والتطهر للوصول إلى الدرجة العليا في القربى إلى الله ونيل رضاه...[2].

ويجمـــع العديـــد من العارفين بخبايا التصوف أن حركة التصوف قد بدأت تنتشر لأول مـــرة فـــي ربـــوع المغرب الإسلامي منذ القرن الخامس الهجري الموافق للقرن الحـــادي عشر الميلادي أثناء حكم المرابطين حيث انتشرت آراء الإمام **حامد الغزالي** مـــن خـــلال كـــتابه الإحياء الذي لقي معارضة شديدة وأمر علي بن يوسف بن تاشفين

بإحراقه عام 503هـ. ويبدو أن ظاهرة التصوف كانت قد رسخت وتغلغلت في صفوف طـبقات المجتمع المغربي أيام الموحدين، حيث ازدهرت الحركة الصوفية بتأثير الزاهد الأندلســي **أبو مدين شعيب** بن الحسين (حوالي 520هـ – 590هـ /1126م – 1197 م)، الــذي يعــد شــيخ الصوفية دون منازع بكل الأقطار المغربية والأندلس في القرن السادس الهجري الموفق للقرن الثاني عشر الميلادي، وعمدة التصوف السني ودعاه ابن عربي "شيخ الشيوخ".

ومــن أقطــاب التصــوف الذيــن وفدوا على الجزائر بعد أبي مدين شعيب نجد المتصــوف الشــهير **محي الدين بن عربي** الأندلسي (ولد 1165م في مرسية بالأندلس وتوفي 1240م في دمشق) الذي يعد بدوره قطب من أقطاب التصوف الفلسفي في عهد الموحديــن (560هـ – 638هـ)ومن بجاية واصل ابن عربي طريقه صوب المشرق، حيــث دخل مصر في أواخر القرن السادس الهجري،لكن المصريين نقموا عليه وعملوا علــى إراقــة دمه نظرا لآرائه الفلسفية الصوفية حول وحدة الوجود والحقيقة الوجودية المقتبســة مــن الفلســفة اليونانية القديمة.وقد كان ميزة التصوف السني والفلسفي آنذاك الــزهد ســلوكا كالتقوى وعدم الاهتمام بالرزق، وذم الدنيا، وحب الخلوة والانعزال عن الناس وحياة الفقر والتوكل على الله.

ومــع القرن الثامن للهجرة/القرن الرابع عشر الميلادي كانت الحركة الصوفية قد لعبت دورا أساسيا في رسم معالم الحياة الدينية والاجتماعية في الأقطار المغربية ومنها الجزائــر، ولــم تعــد هــذه الحــركة مــنذ ذلك القرن تقتصر على جماعة من الزهاد والمتصوفين بل كافة المجتمع، ورسخت وتغلغلت في التقاليد الشعبية، وأصبح المتصوفة يبحــثون عن أماكن للخلوة والعبادة في المدن والقرى والأرياف، وانتشرت الألقاب مثل الولــي والغوث والقطب ومعرفة علم الحقيقة، وبدأ الناس يقبلون على المجاهدة والكشف وينخرطون في الزوايا ويؤمنون بالأولياء وكرامتهم ويندفعون إلى زيارة المقابر وأصبح المتصــوفة يمــثلون قوة روحية، وقد صاحب كثرة العلماء والمتصوفة بالجزائر شيوع طريقتين القادرية والشاذلية.

التعريف بـــالقـــادرية

تنتســـب القادريـــة إلـــى الشيخ عبد القادر الجيلاني، أو "القيلاني" سلطان الأولياء وقطـــب الأقطـــاب، والغوث، وعضد الإسلام، ويلقبه أتباعه بـــ " مولى بـــغـــداد " .. فمن هو إذن الشيخ عبد القادر؟

هـــو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني، أبو محمد محي الديـــن الجيلانـــي، أوالكيلاني، أو الجيلي، مؤسس الطريقة القادرية، من كبار الزهاد والمتصـــوفين، ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة 471 هـــ/ 1078م، وانتقل إلى بغـــداد شـــابا، سنة 488هـــ، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، والشعر، وكان يأكل من عمل يده، وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة 528هـــ، وتوفي بها سنة 591هـــ /1166م له كتـــب، مـــنها " الغنـــية لطالب الحق "ـــ مطبوع و"الفتح الربان"ي ـــ ط، وللمستشـــرق مرجليوت الإنجليزي رسالة في ترجمته، نشرها ملحقة بالمجلة الآ سيوية الإنجلـــيزية . ولموســـى بن محمد اليوناني كتاب "مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني" ـــ مخطوط، ولعلي بن يوسف الشطنوفي "بهجة الأسرار" ـــ ط.، في مناقبه، ولمحمد بن يحـــي التاذفي "قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر" ـــ ط.، وترجم عبد القادر بن محي الدين الإربلي عن الفارسية " تفريج الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر" ط. [3].

وكـــل هـــذه المؤلفات تبين حسب العديد من الدراسات، أن الطريقة القادرية تتسم بالإصـــلاح والإرشـــاد والتســـامح، ونشر المعرفة والعلم، ومحاربة المستعمر المحتل والغاصـــب للأرض والعرض، وهي أول طريقة صوفية ظهرت في العالم الإسلامي، حســـب كتاب الغنية، لـــطالبي طريق الحق في الأخلاق والتصوف والآداب الإسلامية، للشيخ عبد القادرالجيلاني الحسني(470-561هـــ)، الطبعة الأولى، بيروت دار صادر- دمشـــق دار البشائر، 1996م ولهذا فهي منبع وأصل لكل الطرائق الصوفية التي جاءت بعدها، كالشاذلية والدرقاوية والشيخية والتيجانية والطيبية والسنوسية وغيرها .

أنجـــب الشـــيخ عبد القادر عددا كبيرا من الأولاد، منهم عبد الوهاب ـــ وعيسى، وعـــبد العزيز، وعبد الجبار، عبد الرزاق، وإبراهيم، ومحمد، وعبد الله، وصالح وموســـى، وأخـــرهم يحي، مات بعضهم بالقاهرة، وانتقل آخرون منهم إلى الأندلس والمغـــرب العربـــي، ومعهـــم انتقل أيضا نسب الأشراف لا سيما من الساقية الحمراء حسب السلسلة التي ترجع إلى فاطمة الزهراء والإ مام علي كرم الله وجهه .

تصـــدى الشـــيخ عـــبد القادر للتدريس في بغداد لأكثر من 30سنة، ليبّلغ رسالته التصـــوفية إلـــى العـــالم، كما طاف أنحاء عديدة من العالم الإسلامي، ليوصل تعاليم طريقته التي وضع لها سبع دعائم هي : المجاهدة ــ التوكل ــ حسن الخلق ــ الشكر ــ الصـــبر ــ الرضـــا ــ والصدق . هذا وبعدما أسس الزاوية الأم ببغداد، أوصى الشيخ عـــبد القـــادر ابنه عبد الرزاق بما يلي : " أوصيك يا ولدي بتقوى الله وطاعته، ولزوم الشـــرع وحفـــظ حدوده، واعلم أن طريقتنا مبنية على الكتاب والسنة، وسلامة الصدر، وســـخاء الـــيد، وبـــذل الـــندى، وكف الجفاء، وحمل الأذى، والصفح عن عثرات الإخـــوان، وأوصـــيك يـــا ولـــدي بالفقراء، وحفظ حرمة المشايخ، وحسن المعاشرة، والنصيحة للأصاغر والأكابر، وترك الخصومة إلا في أمور الدين ..."

انتشـــرت الطريقة القادرية ببلاد المغرب العربي عن طريقين هما مصر والأندلس ولهمـــا بـــه فـــروع للزاوية الأم في بغداد. ويقال أن الأسرة البوبكرية التي سكنت مكة المكـــرمة في بداية ظهور الدين الإسلامي، ثم هاجرت ومكثت بمصر لبعض السنوات، وانتقلـــت إلـــى تونـــس بعد ذلك،ثم تحركت جموع البوبكرية نحو الغرب إلى الجنوب الغربـــي الجزائري تحت قيادة **سيدي معمر** الذي اعتبر من أولياء الله الصالحين فقادها إلـــى بـــلاد "بني عامر"، واستقروا في بادئ الأمر في منخفض "وادي القليتة" ما يقارب أربعـــة أجـــيال، حيـــث شيدوا القصور(القرى)، وأقاموا القباب على أضرحة أجدادهم، وســـرعان مـــا غـــادر بعض أفراد هذه القبيلة هذه القصور واتجهوا غربا نحو واحات الفيقـــيق بقـــيادة ســـيدي سليمان ولد أبي سماحة أين توفى هناك، وبعد ذلك اشتاق الابن الأكـــبر سيدي محمد ولدسيدي سليمان إلى موطن أجداده، فما لبث أن غادر فيقيق تاركا وراءه أخوتـــه هـــناك، ونزل بالشلالة التي مكث بها حتى وفاته،وقد أنجب سيدي محمد ولـــدا رزق (الـــبركة) عن أجداده والتقوىوالعلم والاحترام والتقديس في بعض الأحيان وهـــو **عبد القادر بن محمد بن سليمان بن بوسماحة** بن أبي ليلى بن أبي الـــحـــيّة بن عيســـى بـــن مـــعـــمـــر بـــن ســـليمان بن ســـعـــد بن عـــقـــيل بن حرمة الله بن عـــســـكـــر بن زيـــد بن أحمد عيسى بن تـــودي بن محمد بن عيسى بن زيـــدان بن يزيد بن طـــفـــيـــل بن المـــديو بن عـــزراو بن زغـــوان بن صـــفـــوان بن محمد بن عـــبد الرحمـــن بـــن أبي بـــكـــر الصديق والذي يعتبر من العلماء العاملين الصالحين المجاهديـــن، لهـــذا اعـــتقد الـــنّاس أنّه ولي الله الصالح، فشاع اسمه بـــ **سيدي الشيخ**، وأصـــبح له العديـــد من الأتباع والإخوان والمريدين،خاصة بعد تأسيسه لطريقة صوفية خاصـــة به وهي الطريقة **الشـــيخية** التي تستمد أصولها الصوفية من القادرية والشاذلة

التـــي أخذهـــا عـــن مقدمها الشيخ **محمد بن عبد الرحمان السهيلي**، والذي أخذها- هذا الأخـــير- بـــدوره عـــن الشيخ **أحمد بن يوسف الملياني**، و ـــ تتلخص أصول الطريقة الشيخية في النقاط الخمس: ـــ 1) ـــ تقوى الله في الســـر والعلانية. 2) ـــ أتباع السنّة فـــي الأقوال والأفعال. 3) ـــ الأعراض عن الخلق في الإقبال والأدبار. 4) ـــ أرضى بمـــا أعطـــاه الله ســـواء كـــان قليلا أو كثيرا. 5) ـــ الرجوع الى الله تعالى في السراء والضـــراء. ـــ وللشـــيخية الأذكار القادربة والشاذلية التي يتلقاها الأتباع ويرددونها في أوقات معينة بعد دخولهم للطريقة .وهم يضيفون إلى ذلك قراءة الفاتحة ثلاث مرات بعد كل صلاة من الصلوات الخمس.أما الأوراد التي تتخذها الشيخية هي قراءة الفاتحة ثلاث مـــرات، التشـــهد 300مرة، الاستغفار 300مرة، الصلاة على النبي وذكر فضائله100 مـــرة، ذكـــر كلمـــة الله الواحد 1000مرة. وتؤكد الشيخية على الزهد والخلو والذكر والدعاء بالرحمة والمغفرة. وألف الشيخ كذلك الياقوتة من ثمانية وسبعين بيتا يحث فيها على الجهاد ويلخص فيها طريفته الشيخية.

وقـــد ولـــد سيدي الشيخ بقـــصـــر العرباوات الواقع مابين البيضوالأبيض سيدي الشـــيخ في حوالي سنة 940هـــ/1533م وتوفي عام 1025هـــ/1616م [4] ودفـــن في الأبيض الذي أصبح يطلق عليه منذ ذلك الحين الى اليوم اسم الأبيض سيدي الشيخ .

إن أول مـــن أســـس فرعا للقادرية في الجزائر في أواخر القرن الثامن عشر هو الشـــيخ **مصطفى بن محمد بن المختار الغريسي** سنة 1200هـــ/1785/11/4م والواقع أن فـــروع هـــذه الطريقة كانت موجودة من قبل في مختلف المدن ولها زوايا وأضرحة وقـــباب ومساجد في تلمسان والجزائر، وبجاية، وقسنطينة، وغيرها ولها أوقاف كثيرة ترسل مع الحجاج إلى الزاوية الأم ببغداد.

دور القادرية في المقاومة الشعبية

اضـــطلعت الـــزاوية القادرية دورا هاما في عهد المقاومة الأولى وبرزت كرائدة للجهـــاد تحت لواء شيخ الزاوية القادرية **محي الدين بن مصطفى** باعتباره زعيما روحيا اســـتطاع أن يجمـــع حوله المجاهدين الأوائل، ولما أشتد الأمر وعظم الكرب، ألح أهل العقـــد والحل على الشيخ أن يقبل الإمارة نظرا لنسبه الشريف وزعامته لمشيخة الطريقة القادريـــة، لأن الجزائـــر تعـــيش في وضع خطير من جراء الفراغ السياسي والهجوم الاستعماري.

اعـــتذر الشيخ محي الدين لكبر سنه، وبعد إلحاح من العلماء وشيوخ الجهة رشح ابنه عبد القادر قائلا:"ولدي عبد القادر شاب تقي، فطين صالح لفصل الخصوم ومداومة الـــركوب مع كونه نشأ في عبادة ربه، ولا تعتقدوا أني فديت به نفسي، لأنه عضو مني ومـــا أكرهه لنفسي أكرهه له...غير أني ارتكبت أخف الضررين حين تيقنت الحق فيما قلتموه...مع تيقـــني أن قيامه به أشد من قيامي وأصلح...فسخوت لكم به..."."لقد فوجئ الجميع بهذا الحل السعيد، فانتشرت البشائر وعمت الفرحة أرجاء البلاد،ويذكر نحله في كـــتابه (تحفة الزائر...):" ...وتباشر الناس لذلك، لما رأوا من إقدامه للزحف، واقتحامه للصـــف بعـــد الصف، وشاهدوا فيه من الصفات العلية والنعوت السنية،فاجتمع أشرافهم وعلماؤهم وأعيانهم،وتداعى صغيرهم وكبيرهم، وخيموا "بوادي فروحة" من غريس عند شجرة الدردارة،وهي شجرة عظيمة،كانوا يجتمعون إليها، وللشورى بينهم..."[5]

جلـــس الأمـــير عـــبد القادر تحت الشجرة وقام والده، فبايعه على السمع والطاعة ودعـــا له بالخـــير،ثم لقـــبه << ناصر الدين>>، وقام عمه علي أبي طالب وبايعه،ثم الأخـــوة وسائر الأقارب والأشراف والعلماء والأعيان والرؤساء، وهكذا انتقلت السلطة فـــي الجزائر إلى الأمير عبد القادر بن محي الدين عن طريق الانتخاب والبيعة ورضى الأهالي والتفاف الجماهير حوله وبذلك تعتبر السلطة الأمير سلطة شرعية قانونية، لأنه قـــد وضـــع بالبيعة الأولى (في الثالث من رجب سنة 1248هـــ/السابع والعشرين من نوفمبر 1832م) والبيعة الثانية (13رمضان 1248هـــ الموافق لـــ 4 فبراير 1833م) الحجـــر الأساســـي لبناء دولة الجزائر على أسس ثابتة وقـــواعد سليمة ثم أنّه أكد أيضا اســـتمرار سيادة الدولة الجزائرية،ولكنّها في ثـــوب جـــديد متمثل في عناصر جزائرية أكـــثر ارتـــباطا بـــالأرض واهـــتماما بمصالح السكان، وذلك بعد انتهاء دور العناصر العثمانـــية [6] . كـــل هـــذا جعل النّاس تلتف حول الأمير، مهما كانت عقيدتهم الصوفية وجعل القضية تخرج عن نطاق الطريقة إلى نطاق الوطن. ولكن القادرية استمرت على نشاطها إلى جانب المقاومة عندئذ والتفاف الإخوان من حول الأمير حتى بعد وفاة الحاج محي الدين، وتولي ابنه محمد السعيد ــ أخو الأمير ــ شؤون الطريقة فهو خليفة والده الصـــوفي، وهـــو الابـــن الأكـــبر.وقد تعاونت الطرائق الصوفية في عهد الأمير مثل الرحـــمانية والدرقاوية والطيبيـــة والشيخـــيـــة وغيرها، ولم يفرق الأتباع بين صوت المجاهدين، فكلما دعا الداعي استجابوا بقطع النظر عن مصادر الصوت .

وبعـــد هجرة الأمير إلى الشام أصبح محمد السعيد خليفة القادرية في بيروت وله في الجزائر أتباع يستقبلهم ويقدموا له الزيارات.

ومـــن المقاومـــات البارزة في الجهاد الجزائري ثورة الزعاطشة[7] بزعامة الشيخ بوزيان الذي كان له آمل في مواصلة الثورة التي قادها الأمير عبد القادر، ذلك أنه كان تابع لدولة الأمير، وكان يشغل منصب شيخ واحة الزعاطشة ضمن موظفي إدارة الأمير بالمـــنطقة. وتذكـــر بعـــض المصادر التاريخية أنه كان من المرابطين والأشراف ... وصاحب زاوية قادرية، وأنه كان محاربا شجاعا، ومن أحذق الرماة.وأن سمعته واسعة وشخصـــية محـــترمة. وقد حارب ضد جنود الحاج أحمد باي خلال حصاره للزعاطشة سنة 1831م.

ورغـــم اســـتعمال العدو لكل الوسائل الجهنمية من أجل معاقبة الثوار والمجاهدين لـــيكونوا عبرة للآخرين ...كالإعدام والتعذيب والمصادرة والإتلاف والحرق...وأحيان أخـــرى اســـتعمال الـــترويض والتدجيـــن وشراء الذمم ..فإن شعلة الثورة لم تخمد بل استمرت مرفوعة يسلمها كل ثائر إلى خلفه لذلك فإن الشيخ بوزيان قد أخذ المشعل عن الأمير عبد القادر لمواصلة الكفاح في سبيل الله والوطن.

اســـتطاع الشيخ بوزيان أن يقنع الجميع بالجهاد والثورة ويحظى بثقتهم ويوحدهم تحـــت رايـــة الديـــن الحنـــيف والجهـــاد المقـــدس، فتكتلت حوله وثارت ضد سلطات الاحـــتلال.ومرت الثورة بثلاث مراحل أساسية هي :مرحلة الانتصار ومرحلة الحصار ومرحلة الانكسار من صيف 1849م إلى بداية شتاء 1849م.

وبعـــد معـــارك طاحـــنة احـــتلـــت القـــوات الفرنســـية كـــلّ الـــشـــوارع والـــســـاحات والـــســـطـــوح حوالي الســـاعة التاسعة صـــبـــاحًامن يوم 28 أكتوبر 1849م، فـــسكـــتت المقاومة وأجهزوا على الجرحى الـــمـــســـلمين نكايـــة بهم .

وبعـــد أن ســـقـــطـــت كـــل الدور وسكتت جميع الأرواح بـــقـــيت دار بوزيان قائمـــة ومنها كان ينطلق الـــضـــرب، فـــوضـــع العـــدو في أساسها الألغام ونـــسفت بمـــن فـــيها علـــى من فيها واختلطت النيران بالدخان والغبار وأنات الجرحى بأصوات الحجارة المتهاوية، ومن وسط الركام خرج بوزيان شامخ الرأس كأن شبح صحابي من رفـــاق عقبة بن نافع فانهال عليه العدو ضرباً قبل أن ينجلي عنه الغبار والدخان فسقط شـــهيداً مضرجا بدمائه، وبعد أن تأكد العـــدو أنه لم يـــبـــق في الزعاطشة حـــيٌّ من

البشـــــر ولا حـــيّـــة مـــن الشـــجـــر، أقـــام على بـــاب مـــعـــســكر الجنرال "هيربيون"، قائد الحصار،مـــقصـــلة رفـــع عليها ثـــلاث رؤوس : رأس الشيخ بوزيان ورأس ابـــنه الشـــاب (خوفًا من أن يأخذ بثار أبيه ذات يوم) ورأس شيخ آخر طالما حـــارب الفرنسيين منذ 1833 وهو الحاج موسى بن حسن المصري الشاذلي- الدرقاوي المعروف ببوحمارة،حيث دخل الجزائر سنة 1829م وأسس له زاوية بـــ" مسعد" وأطلق على البلدة التي أقام فيها أسم القاهرة.

وصـــــلت الأخبار إلى العـــــديد من القبائل، وعلمت بهذه الجـــرائم الشنيعـــة فـــتأثرت كثيرًا وعزمت على الانتقام لمـــوتاهم والأخـــذ بالثأر على المساجـــد التي هـــدمتها مـــدافـــع الحصـــار ولغابات النخيل المقطوعة.

وفـــي هـــذا الصـــــدد نـــظّم الشاعر محمد لَيشاني قـــصـــيدة طويلة من الشـــعـــر الملحون يذكر فيها بـــطـــولات ثـــورة الزعاطشة وقـــائدها الشيخ بوزيان نـــورد منها بعض الأبيـــات :

الحمد لله.

فرد الحمام اسعاني يحميك يا أبي الدونان * * * توصل الباي الصحراء سلم عليـــه بوزيـــان

بسم الله القصة صارت في آخر الزمـــان* * * هذا الروم جارعلينا ايدو يرفـــــد بوزيـــــان

بوزيان راه واعرماهوشي مهمول للخزيان* * *غير الى راشق زويجة طبنجة بالفضةوالمرجان

ثمّ يقول :

إن شاء الله من حوضو نروا من عسل وخمرولبان* * * تابعين طريق النبي ومصدقين يا بوزيان

إن شاء الله في الدنيا نسعدوا فيالجنة يقول مضمان* * *يا الإسلام خسارة عنكم اتبعوا في أولاد جوان.

ويختم الشاعر قصيدته بالأبيات التالية :

ناصرين الدين قبالة متوكلين على الرحمان * * * يرحم مبارك بن الأحمر وعلي بن ادود فتان

أولاد عبدالله جملة طاحوا في شاو الميدان* * * الى قال القول محمد ليشاني نظم غيـــــوان.

كذلـك خـــلّـــد الشـــاعر ابن الشرفي من قرية فليـــاش هذه الثورة في قـــصيدة رائعة، بـــدأها بالحمد لله والصلاة على الرسول الكريم(ص) ثمّ طرح السؤال التالي :

يادرا واشِـــنْـــهُ المفعول بين ســـيـــدي وناس الكفار ؟ ــ الجـــواب :

جـــات ليهم قـــدّ الجـــــراد * * * * * والعســـــاكر مثل الويـــدان

يحلفوا بعبـــــادة ا لأوثـــــان * * * * * لن نخـــلوها وتبقى قـــفـــرًا

جملة من كـــــل أوطـــــان * * * * * من المدية للغـــــرب اتلـــمسان

لَـــمْ عساكـــرحتى لوهـــــران * * * * * ذي قـــضـــــية ما جـــــرا

والجزاير من كل مرسى جـــات * * * * * سكيكدة وعـــــنابة باثبـــــات

على الزعاطشـــــة تلاقـــــات * * * * * تـــورخـــــو يا من هو يقـــرأ

العساكـــر والقـــــوم تـــــدور * * * * * والمدافع تتـــــعمـــرّ بالكور. (8)

ولهذه الثورة نتائج عـــديدة منها،أن ثورة قد انتهت بخسائر فادحة حيث خـــربت الواحـــة بكاملهـــا وعـــن آخـــــرها، فقد أباد الجيش الفرنسي ســـكـــانها وقـــطـــع نـــخـــــيلها واســـتعمل أبشـــع أنـــواع العـــذاب ومارس كل أصناف العنف والإرهاب والأجـــرام التـــي يـــنـــدى لها جـــبين الإنســـانيـــة، منها قطـــع الرؤوس البشـــريـــة وتعليقـــهـــا على الأبـــواب أو على خنـــاجـــر البنادق .. نكاية وتشـــفـــيا في العرب. وعـــن فـــضـــاعة الجـــنـــود الفرنسيين ــ فقد شـــهـــد شـــاهد من أهـــلـــها ــ حيث يـــذكر المؤرخ الفرنسي المعروف والورع والـــقريب من الأحـــداث " بوديكـــــور" (*BAUDICOUR*) :"..إن الجنود (الزواف) قد انقضـــوا على الذين لم يسعفهم الحـــظ للهـــروب، حيـــث رأى جـــنـــدي مـــبتـــور الـــســـاق يـــداعب ثـــدي امـــرأة مسكينة (أي يكـــاد يقطـــع حلمـــتها) وهـــي تطالب ســـوى الإجـــهـــاز عليها لتتخلص من هذا العـــــذاب؛ وهـــناك جـــنـــدي آخـــر أخـــذ طفل صغير من رجله وضـــرب رأســـه علـــى الحـــائط ليهشـــمه وغـــيـــرها مـــن الأحـــداث الشـــنـــيـــعة التي لا يـــمكن وصـــفـــها..".

كما أثارت ثـورة الزعاطشة تـضـامـنـاً رائـعا أظهـرهما كل الأهالي، كذلك أثـارت اسـتـغـراب الـعـدو مـن تـصـمـيم الـسـكان الـعـنيـد على إفـشـال كل مخـططاتـه ومواصلة الحرب، حيث لم يـطلب أي أحـد الأمـان، رغم فـضـاعـة الحـرب واليـأس من الانتصار.

احـتـلال مـديـنة بوسعادة، لأنها قامت بانتفاضة بـقـيـادة محمد علي بن شـبـيـرة،وهو زعـيم ديـنـي دعـا إلى الـجهـاد أثناء ثـورة الزعاطشة وأرسـل النـجـدات إلى الشيخ بوزيان، وفي نفس الوقت هـاجـم الحامية الفرنسية المتواجـدة في بوسعادة منذ سنة 1843م، وقد انضم إليه أولاد نـائل وعـدد آخـر من سـكان الناحية.لذلك سارعت القـوات الفرنسية من البرج ومن مجـانة لمحـاولة فـك الحـصـار على الحامية الفرنسية التي التجأت إلى الجامع الكبيـر ببوسعادة، وكانـت هـذه القـوة تحـت قـيـادة العقيد "دومـاس" الذي قـام بـالهجـوم على الـمديـنـة يـوم 14 نوفمـبر 1849م واسـتطاع فـك الحـصـار وإنـقـاذ الحـاميـة؛ وبعد نجـاح الضابط "دوماس" في مهـمـتـه فـرض على الـسـكان غـرامة ثـقـيلة قـدرت بثـمانية آلاف فـرنك، ونـصـب الضـابط "بـان" (*PEIN*) كقـائد علـى المكتب الـعـربي ببوسعادة، كما فـرض على الأهالي دفـع أثمـن ما عندهم من زرابي ومنسوجات وتجريدهم من كل أمتعتهم لتسـديد الغرامة المفروضـة عليهم مما جعل العديد منهم يـفـرُّ من بوسعادة ويتوجه نحو تونس حيث جعلها مستقرا وطنا جديدا ولم يـرجـع أبـدًا.

كذلك حـرق واحـة نـارة التي تـقع على وادي عـبـدي بـالأوراس، فقد لقيت مـصـيـرًا كمـصـيـر الزعاطشة على يـد "كاروبير" الذي تـرقـى على إثـرها إلى رتبـة جنرال؛ حيث تـقـدم بهذا الضابط إلى القـريـة بـقـوة هـائـلة قـوامـهـا ثـلاث فـرق من الجيش وذلك يوم 05 جانفي 1850م فقـتـل وهـدم وأحـرق وسوى الأرض بها على من فيها ثمّ تبعتها عملية واسعة في الأوراس بقيادة الضابط "سـان ــ آرنو" (*St - Arnaud*).

إن هـذه الأحداث وغيرها، تـدل دلالة واضحة على أنّ المعركة مع الاحتلال الفرنسـي هـي معـركة واحـدة سـواء في الزيبان أو الأوراس أو جـرجـرة وإن تـبـاعدت المـناطق، وهو الشيء الذي منعها من الاتصال والتنسيق من أجل الوقوف كرجل واحد في وجـه المحتل الدخيل الذي يـريد أن يعطي لنفسه حـقـًا ليس له.

برهنـــت ثورة الزعاطشة على عجـــز العمـــلاء والخـــونة وخـــداعهم، وتيقنت السلطات الفرنسية من ضعف ابن قانة (شيخ العرب)،بل ســـاورتهم الشكوك في ولائه، لذلـــك عاقبـــته الســـلطات الفرنســـية بتقليص نفوذه، وزجّت به في تنـــافس داخلي مع أفـــــراد أســـرته، وتنافس خارجي مع أسرة بوعكاز وأنـــشـــأوا قيـــادة جـــديدة في الصـــحاري عـــينـــوا فيها بولخراص بن قانة والذي سيلعب الدور البارز في ترسيخ أقـــدام الاحـــتلال الفرنسي في المنطقة وبذلك ينافس ويقتسم النفوذ مع بوعزيز بن قانة، كمـــا فـــتـــتوا المـــنطقة إلى قيـــادات جـــديدة جعلوا عليها قـــادة جدد حتى لا يترك الـــنفوذ المباشر فيها لأولاد بن قانة وحدهم، وقد اتبعت السلطات الفرنسية هذا الإجـــراء مـــع كـــل الأســـر الجزائرية المتـــعـــاملة معها حيث أعطتها سلطات محدودة تسمح للحـــــاكم الفـــرنـــســـي بالمراقبة عن كثب. وأخـــيـــرًا استطاع الاحتلال أن يفـــرض نفســـه علـــى المنطقة بقـــوة الحـــديد والنار وأن يسيطر على كامل الزيبان وهو بذلك يـــضـــع قـــدمه على أول عـــتـــبـــة للـــصـــحـــراء لـــيـــدلج إليـــهـــا، لهذا فـــإنّ احـــتلال هـــذه المنطقة تـــعـــتبر مـــرحـــلة حاسمة للتـــوسع الاستعماري في الجزائر عامة والصحراء خاصة.

ورغم ذلك فإن القادرية بقيت منتشرة في الجزائر تحت القيود الاستعمارية . فكان مـــن رموزها سيدي محمد بن عودة في نواحي زمورة بولاية غليزان، الذي يعتبر حام حـــــمى سهل مينه والذي يعتقد فيه أهل البادية والحاضرة والمعروف أن زاوية شلاطة كانـــت قادريـــة الأصل، وكذلك بعض الرموز في بني عباس بزواوة .وقد ظهر شخص يدعـــى ابن النحال في زاوية الفجوج في نواحي قالمة ووادي الزناتي [9]، كما بقي تأثير القادريـــة في نواحي وهران . إذ أصبح الشيخ بوتليلس صاحب شأن وتأثير في المنطقة، وكـــان هو الخليفة للقادرية بعد أن جاءه التعيين من المشرق (من محمد المرتضى) . وانتعشت زاوية شلافة أيضا وهي قرب هليل تحت مشيخة الأحول عبد القادر، وكانت تجمع حوالي خـــمسين مقدما وبضعة آلاف من الإخوان سنة 1897م وكانت زاوية سي الأحول ذات أهمية روحية، وهي واقعة في واد الخير الذي يصب في وادي الشلف بين مستغانم وغليزان .

كما انتشرت القادرية ناحية تيارت والجنوب الغربي، ومن زعمائها هناك بلعربي عـــبد القـــادر وبن قدور، وكانت زاويتها هناك سنة 1844 م، مدرسة لتعليم الأطفال القرآن الكريم والدين، وكان قد أسسها قدور بن مسعودة جد المقدم المذكور .

واصـــطدم الاحـــتلال الفرنســـي في عملياته التوسعية نحو الجنوب الغربي بثورة عارمـــة أشعلها الشعب الجزائري، بقيادة أولاد سيدي الشيخ،للدفاع عن مجالها الحيوي، عـــبر الهضـــاب العلـــيا الغربية التي يتمتع بموقع استراتيجي هام وخطير في عمليات التوســـع الاستعماري.واتبعت السلطة الاستعمارية عدة أساليب في تكريس احتلالهاوبسط نفوذها في الجزائر منها استعملت نفوذ أسرة أولاد سيدي الشيخ كمطية للتسرب والتوغل داخل البلاد، وحينما تيقن الزعماء من خطر هذه السياسة وقفوا كالطود الشامخ للتصدي لها،وأعلـــنوا الجهـــاد يوم أول فيفري 1864م للذود عن حمى الدين والأرض والعرض والشرف.

وفـــي هـــذا الوقـــت عرفت الجزائر عدة أحداث منها مقاومة قبيلة **فليتة** المرابطة بجـــبال الونشـــريس، والتي لها علاقات وثيقة بأولاد سيدي الشيخ، وقد تأثرت بأحداث الـــثورة، وقد تزعم هذه المقاومة **سي الأزرق بالحاج** مقدم الطريقة القادرية(أوالدرقاوية التـــي هـــي فرع من القادرية)، وحاولت هذه المقاومة الإلتحام بثورة أولاد سيدي الشيخ ومؤازرتهـــا، غـــيرأن القوات الفرنسية قد منعتها من ذلك وسحقتها في الحين، كماقتلت زعيمها **سي الأزرق** وأرغمت الآخرين على الاستسلام.

مـــا كادت جذوة ثورة أولاد سيدي الشيخ الشراقة تخبو، حتى ظهرت ثورة أخرى أكـــثر مراســـا وأشد عنفاوهي المتمثلة في ثورة أولاد سيدي الشيخ الثانية أوثورة الشيخ **بوعمامـــة القـــادري**[10]، ومـــمـــا لاشـــك فـــيه هو أن هذه الثورة كانت أطول الثورات الجزائـــرية التي اندلعت في وجه الغزو الفرنسي، ذلك أنها دامت أكثر من ربع قرن من شهر أفريل 1881م إلى غاية وفاة بوعمامة في أكوبر1908م.

ولـــد محمـــد بن العربي بن الشيخ بن محمد بن إبراهيم بن التاج والمشهور بأبي عمامـــة حوالي 1838 أو1840م بفيقيق في قصر الحمام الفوقاني، وقد انخرط في سلك حلقـــات العلـــم منذ نعومة أظافره، حيث تدرج من الكتّاب لحفظ القرآن الكريم ومبادئ الخـــط إلـــى أن تدرج في طلب العلوم الدينيةمن خلال مبادئ العقيدة الإسلامية، مرورا بكـــل المـــدارس الكلامـــية، إلـــى الفقه وعلومه، وتتلمذ أبو عمامة البوشيخي القادري الدرقـــاوي على الشيخ محمد بن العربي **اليعلاوي الفلالي**، ثم انكب علىدراسة التصوف والطـــرائق الصـــوفية، وعمل الشيخ بوعمامةعلى تنفيذ وصية جده والتي هي : " إحياء التقالـــيد بالطـــريقة الشيخية القائمة على الورع والتقى والتقوى " فاتبع إذن حياة الزهد والنسك، حيث يقضي معضم أوقاته في التعبد أو تعليم القرآن أو دراسة المسائل الفقهية

التـــي تطرح عليه، أوالتأمل في الكون والخالق والأبعاد الصوفية، التي كانت لها التأثير العميق على حياته وعقيدته وتصوره، كما كان يفكر في واقع الناس، وما آلت إليه البلاد مـــن ظلـــم وتجبر من قبل احتـل القوات الفرنسية للتراب الجزائري .لهذا شكل الشيخ بوعمامـــة شبكة من العلاقات المتينة بين أتباع الطرائق الصوفية غير الطريقة الشيخية، كما ربط علاقات مع أتباع ومحبيين من أهل توات والشعانبة وتمكن من كسب علاقات كبـــيرة مـــع كثير من القبائل والشخصيات المحلية، واستطاع أن يخترق النفوس الساكنة الراكدة بلغة وأسلوب جديدين ودعوة جديدة من خلال الأفكار التي كان يروج لها،فزرع الأمـــل في نفوس الأهالي،وبشرهم بقرب الخلاص من كابوس الاحتلال الفرنسي.فجاهد جهادا مريرا خلد في سجل الناريخ المجبد.

نشـــاط القادرية بـــســـــوف

ظهـــرت فروع أخرى في شرق الجزائر وجنوبها، كان لها دور بارز أثناء غزو فرنسا للصحراء في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي، منها زاوية عميش بالوادي، وزاوية الرويسات بورقلة وزاوية مسعد – الأغواط، ومعظم هذه الزوايا ذات صلة بزاويتي نفطة والكاف القادريتين بالقطر التونسي الشقيق.

ومؤسس زاوية نفطة هو أبو بكر بن أحـــمد الشريف، وهو تلميذ الشيخ المنزلي (نسبة إلى منزل بوزالفة ــ تونس) وقد تطورت الزاوية بفضل جهود الشيخ إبراهيم بن أحمـــد الشـــريف، ووصـــل تأثـــيره أواخر القرن التاسع عشر الميلادي إلى غـــدامس، وغـــات، والجزائر، وعين صالح بإقليم تيديكلت، وتـــــوت، وبـــلاد التوارق.

تـــرك إبراهيم أولادا تقاسموا بـــركة والدهم على النحو التالي: الأكبر منهم، وهو محمـــد تولـــى الزاوية الأم بنفطة، وأسس الهاشمي زاوية بالبياضة في وادي ســـوف، واصـــبح نائبا لأخيه، أما أخوهما محمد الطيب، فقد نـــشـــر الطريقة في ناحية ورقلة، وأســـس زاويـــة فـــي الرويســـــات، وكـــان له أتباع في الأغـــواط وغـــرداية وبين الـــشـــــعانبة، ولهـــم أخ رابع اسمه الحسين، أسس زاوية بقمار بوادي ســـوف، بينما أسس الأخ الخامس زاوية في تبسة، والابن السادس وهو محمد الإمـــام أسس زاوية في صحن الشعانبة بوادي سوف أيضا.

تنحدر أصـــول أســـرة أحمد الشـــريف من البوازيد (أبو زيد)، وهي قبائل عربية قـــح منتشـــرة بالعامـــري، مابين طولقة وفـــوغالة وبـــســـكرة، وقد هاجر الجد الأول

إبراهـــيم إلى الجنوب الغربي التونسي، واستقر بنفطة لينشط ضمن الزاوية القادرية، وقد أنجب هناك ابنه الهاشمي سنة 1853م من زوجته الســـوفية من عرش أولاد أحمد، لهذا رجع سي الهاشمي إلى أرض الوطن عند أخواله سنة 1892م، حيث أسس زاوية قادرية بالبياضـــة علـــى غـــرار أجـــداده، ليواصل نشاطه الديني والفكري هناك، ويجـــنّـــد الأتـــبـــاع وينشـــر الطريقة إلى أقصى الجنوب، ويـــربط عـــلاقات ودية مع السودان وغـــات. وقـــد واجه الشيخ محمد الهاشمي منافسة شديدة ومـــريرة من طرف الزاوية التجانـــية التـــي تمـــثل طريقة "الأحباب" المنتشرة بكثرة في ســـوف..وكانت السلطات الفرنســـية تزكي هذا التنافس بل وتثير النعرات والفتن بين الطريقتين وتدس أعوانها بين الزاويتين لإشعال النيران بينهما ضمن سياسة "فرق تسد"

ومن إشعاع القادرية في المنطقة، أنها استـــقطبت المغامـــرة "الأوروبية إيزابيل إيـــبر هارد" ISABELLE IBER HARDE) حيث اعتنقت الإسلام في ظل الزاوية[11] عـــن طـــريق سي الهاشمي حينما زارت الوادي في بداية القرن العشرين وتعرفت فـــيما بعد على الرقيب "السايحي سليمان هني " والذي أصبح رفيقها، حيث تزوجا على ســـنة الله ورسوله بالزاوية القادرية وتم العقد لإيزابيل بإسم عربي هو "مريم" وهو الاسم التي كانت توقع به بعض رسائلها.

وفـــي 29 جانفـــي 1901 تعرضـــت لاعتداء عنيف في بلدة البهيمة أثناء مراسيم الاحـــتفال بمقـــدم الشـــيخ سي الهاشمي وهذا من طرف شخص يدعى "عبد الله محمد " والـــذي وجه لها ضربة سيف أصابتها في الرأس والذراع الأيسر إصابة خطيرة بدعوى إهانـــتها للإســـلام، عـــند تشـــبهها بالرجال، وفي تقمصها زي الفرسان العرب، وعدم احـــترامها للشـــريعة التي تحرّم ذلك. هذه الضربة أقعدتها في مستشفى الوادي أربعين يومـــا، ومـــع ذلك أشفقت على المعتدي أثناء المحاكمة لأنها علمت بأن عبد الله محمد كانـــت تحـــركه بعـــض الأيـــادي، وبأنّ مدبري الجرمية هم من عملاء الإدارة المحلية بـــ"المكتب العربي " (Bureau Arabe)، لهذا دافعت عنه أمام محكمة قسنطينة في 18 جـــوان 1901م، تفاديـــا لإثـــارة المشـــاكل، ومع ذلك فقد حكمت عليه المحكمة بالأشـــغال الشـــاقة وحكمـــت علـــى " إيزابيل " بالنفي كشخص أجنبي، ثمّ أخذت هذه الشخصية ــ الغريبة عن الدوائر الاستعمارية وغيرها ــ اهتماما أكثر من حجمها بحيث مازالت الدراسات قائمة حولها إلى حد الساعة.

تفطــن الشــيخ الهاشمي إلى مكائد الإدارة الفرنسية فعمل على محاربة الاستعمار الفرنســي فــي الــبلاد، خاصــة بعدما عرفت هذه الأخيرة أنّه يناصر حركة الجامعة الإســلامية وكــان محــبا للدولة العثمانية وهذا حسب مراسلات الزعيم الليبي سليمان البارونــي مــع الســيد سالم بن أحمد والشيخ الهاشمي .وجاء في إحدى المراسلات من البارونــي إلى السيد سالم بن أحمد << قد وصلني جوابك من غدامس ... >> وهاهــو جــواب إلى <<حضرة الشيخ الهاشمي في وادي سوف، بلغه إليه ليرسل إلينا جوابا ســريعا، وأطلــب لــنا مــنه الفاتحة>> فما أهمية الجواب السريع المنتظر من الشيخ الهاشــمي الــذي وصف في مكان آخر، بأنه << صاحب النفوذ في تلك الجهات >> والمعــروف أن إخــوة الشيخ الهاشمي كانوا مقدمين للطريقة القادرية في شرق الجزائر وتونس وليبيا أيضا[12]، ولعل عمليات اتصال كانت تتم عن طريقهم لمساعدة المجاهدين في ليبيا عندئذ.

ويقــال أن الشيخ الهاشمي قد جند أجنادا عديدة من منطقة سوف أرسل بهم إلى ليبيا لــيجاهدوا بجانــب إخوانهم ضد الطليان، الشيء الذي أزعج السلطات الاستعمارية في الوادي وحاولوا فرض التجنيد الإجباري على شباب سوف، رغم أن الإقليم من الأقاليم العسكرية في الجنوب والمعفية من قانون التجنيد الإجباري .

اســتغل الشــيخ الهاشمي ظروف الحرب العالمية الاولى ليفجر ثورة عارمة في المــنطقة، لــيخلص الــبلاد مــن ظلم المحتل وأعوانه، خاصة بعدما جاءت القوانين الاســتثنائية، ومــنها قانون شهر جويلية 1917 م، الذي فرض التجنيد الإجباري على شباب المنطقة، مع منع توجيههم إلى ليبيا بعدما أصدرت أوامر صارمة بمراقبة الحدود الجزائرية – الليبية، لكي لا تــتســرب كتائب المجاهدين لدعم إخوانهم الليبيين .

ففــي 15 نوفمــبر 1918 م، حــرض الشيخ الهاشمي الناس على التظاهر ضد الســلطات الفرنسية وأعوانهم القياد، انطلاقا من زاوية القادرية بلدة البياضة، وعرفت هــذه الحركة في المنطقة بــ " هدة عميش " ؛وشارك في المظاهر خلق كثير، أحدثوا هلعا وهولا كبيرين بفعل هتاف الجماهير << لا نموت من أجل فرنسا>>، <<الجهاد ــ الجهــاد >>، وعوض أن تواجه السلطات العسكرية الفرنسية المتظاهرين، اتجهت إلــى مسكن الشيخ الهاشمي، لتطلب منه التدخل شخصيا لإيقاف المتظاهرين المتوجهين صــوب الســجن العســكري بالوادي لإطلاق سراح المسجونين بسبب رفضهم التجنيد؛ فــتظاهر الشيخ الهاشمي بأنه ليس على علم بما حدث،لأنه كان نائما في زاويته، غير

أنـــه قبل التدخل لتهدئة الجماهير، بشرط أن يقدم الحاكم العسكري بالوادي النقيب "يواز" مطالب الجماهير إلى الولاية العامة بالجزائر للنظر فيها مع الحكومة الفرنسية .

وبعد هدوء العاصفة، وجهت السلطات الفرنسية بالوادي تهمة التمرد على فرنسا إلى الشيخ الهاشمي، واعتقلته يوم 16 نوفمبر 1918 م لينقل بعد ذلك إلى سجن بسكرة ومـــنه إلـــى سجن "الكدية" بقسنطينة ؛ريثما يقف أمام المحكمة العسكرية التي أصدرت ضده فيما بعد الحكم بالنفي من الوادي لمدة سنتين ...

ويقـــال في سوف أن كرمات الشيخ الهاشمي كـــثيرة ومنها << أنه وضع له أسد في زنزانته ليفترسه، غير أن دهشة المتآمرين عليه كانت كبيرة حينما فتح عليه الباب، ووجد الهاشمي يصلي وبيده السبحة وبجانبه الأسد يجلس في وداعة>>.

في شهر جويلية 1920 م رجع الشيخ الهاشمي إلى وادي سوف، وحاول التعديل مـــن مواقفـــه الســـابقة تجاه الزاوية التيجانية وحتى اتجاه السلطات العسكرية الفرنسية، وانصـــب كـــل اهتمامه في تطوير زاويته وتوسيع نفوذها، ونشر العلم وإيقاظ ضمائر الناس للنهضة العارمة وكان ينوي إنشاء جامعة في زاويته بالوادي لبث العلم والمعرفة والـــثقافة العربـــية الإسلامية، كما عمل على تطوير ثروات الزاوية ليستغلها في النفقة على نشر العلم والمـــشتغلين به .

بـــدأ أيضـــا الشيخ الهاشمي في تهيئة خليفة له، فتوسم الخير في ابنه عبد العزيز الـــذي لاحظ عليه الفطنة والنجابة وسرعة البداهة، ذلك انه حفظ القرآن الكريم في سن مـــبكرة حفظـــا جـــيدا، ثم غادر الوادي سنة 1913 م ليلتحق بجامع الزيتونة المعمور بـــتونس لـــيزاول تعليمه هناك[13]، وكان أول الناجحين ضمن أقرانه وإخوانه إذ تحصل على شهادة التطويع في حياة والده بامتياز، فعاد إلى الوادي سنة 1923م، فوجد والده قد أوقف زاوية عميش وفروعها على أولاده الثلاثة، واشترط في وصيته أن من يخلفه علـــى رأس الـــزاوية وإدارة أملاك العائلة أن يكون حائزا على شهادة التطويع، وعند وفاته في شهر سبتمبر 1923 م، لم يتوفر هذا الشرط إلا في ابنه الأصغر عبد العزيز وكان عمره آنذاك 25 سنة ورغم ذلك آلت مشيخة الزاوية إلى الأخ الأكبر عبد الرزاق ولكنه لم يعمر طويلا في هذا المصب بسبب حالته الصحية المتدهورة، فتوفي بعد ثلاثة أشهر من تنصيبه على رأس الزاوية في شهر ديسمبر 1923م [14].

ونستشـــهد فـــي هذا المجال برأي الشيخ عبد الحميد بن باديس في الشيخ الهاشمي حيـــث يقـــول فـــي جريدة البصائر : << كان الشيخ الهاشمي شيخ الطريقة القادرية ــ رحمـــه الله ــ رجـــلا ذكـــيا واسع الحيلة، بعيد النظر، أدرك بثاقب فكره أن ما عليه الطرقـــية مـــن الجهل والجمود لا يمكن أن يستمر طويلا وأن المستقبل للعلم لا محالة، فولى وجهه شطر العلم، وقدم أبناءه لجامع الزيتونة المعمور، وحبس أملاكه كلها على العلـــم، واشـــترط فـــي حُبســـه أن تعمـــر زواياـــه بـــأهل العلـــم من أئمة ومدرسين ومتعلميـــن، واشـــترط فـــي أبنائه أن لاحظ لأحد في الحُبس إلا إذا حصل على شهادة الـــتطويع مـــن جامع الزيتونة، وجعل الإشراف لنظاره جامع الزيتونة، وبنى علمه هذا علـــى أن أملاكـــه هي أولى للمسلمين، فلتعد بالنفع على المسلمين، فكان عمله هذا لم يســـبقه إلـــيه أحـــد من أمثاله، انتهى أمر الحبس إلى الشيخ عبد العزيز بمقتضى شرط المحـــبس،وتولى مشـــيخة القادرية . >> [15]؛ وقد خلد شاعر الثورة مفدي زكريا ذكر سوف والشيخ الهاشمي في إلياذة الجزائر بما يلي :

ويا وادي سوف العرين الأميـــن ومعـــقل أبطالنـــا الـــثائرين
ومأوى المناجـــيد من أرضـــنا وأرض عشيرتنـــا الأقربيـــن
ورَبْضَ المحاميد أحـــرار غوما ومن حطموا الظـــلم والظالـــمين
ودرب الســـــلاح لأوراسنـــا وقد ضاعت السبل بالسالكـــين
أينسى ابن شهـــرة أحرارنـــا تَلـــقَفُ رايـــته باليمـــين ؟
أننسى ثلاثـــه أيـــام نحـــس وسُوْسَتَال ينبـــد في النائحـــين
وأخضر يحصِد حُمر الحواصـــــــــــلْ فيها، ويقطع منها الوتين
وضرغامها الهاشمي الشريـــف يُذيق " بُواز " العـــذاب المهين
وكم كان سوف لضم الصفـــوف وجمع الشتات الحريص الضمين
لتحفظ زناتة أرحـــام تيكســـي ويرعى الطوارق عهد البنـــين
شغلنـــا الورى وملأنا الدنـــا

الهوامش والإحالات

1) ــ عــبد الــرحمان بن خلدون، تاريخ العلامة بن خلدون، كتاب العبر، المجلد الأول،ط ..2 بيروت، 1931، ص 683 .

2) ــ أبوالقاســم ســعد الله، تــاريخ الجزائــر الثقافي، الجزء الرابع، بيروت، دار المغرب الإسلامي، 1998، ص 9 .

3) ــ خير الدين الزركلي، الإعلام، قاموس تراجم، بيروت، دار العلم للملايين المجلد الرابع، ط 7، 1987، ص 47 .

4) ــ ابراهــيم مياســي، مــن قضــايا تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، 1999، ص 135 -136 .

5) – محمــد بن عبد القادر،تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر،الطبعة الثانية،شرح وتعليق ممدوح حقي،بيروت، 1964،ص.155.

6) – مياسي،من قضايا تاريخ الجزائر،ص.34.

7) – إبراهــيم مياسي،" ثورة الزعاطشة"، مجلة الدراسات التاريخية،جامعة الجزائر،معهد التاريخ، العدد المزدوج الحادي عشر والثاني عشر،1421هــ/2000م،ص.87 – 100.

(8) Charles FERAUD,<< Les Ben-Djellab,Sultans de Touggourt...>>, in Revue Africaine,n°29(1885),pp.416-420.

(9) A . Depont et X . Coppolani , Les Confreries religieuses musulmanes , ALGER , Jourdan , 1893 , p . 367

أنظــر أيضــا :أبــو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الرابع، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1998،ص 45 .

10) –مياسي،من قضايا،ص.161 – 191.

(11) Denise Brahimi ، L'Oued et le Zaouia ، lectures d'Isabelle Eberhards , Alger , o.p.u. , 1983 .

12) ــ أبـــو القاســـم ســـعد الله، << ســـليمان الباروني، أضواء وملاحظات >>، مجلة الثقافة، العددان 110 ــ 111، سبتمبر ــ ديسمبر 1995، ص 241 .

(13)Les populations musulmans du souf et leur Evolution politique par le capitaine Robert THIRIET , chef de l'annexe d'EL-OUED octobre – novembre , 1938 , p .34 Archive d'Outre – mer , 10 h .89.Voir aussi ; Etude sur l'activité des oulamas dans les tiritoires du sud , par GARDEL - , fevrier , 1938A.O.M. , 10H89 .

(14) .A.O.M 10 ، .H89 . Les population musulmans du souf . p 37

15) ــ جـــريدة " البصـــائر " عدد 113، 24 جمادى الأول 1357 هـــ الموافق لـــ 22 جويلية 1938 .